ستّي صالحة

الله يرحمك يا ستي "صالحة". كانت إنسانة رائعة وبسيطة. عاشت وحيدة وماتت وحيدة. أحببتها كثيرًا، والتجأت إليها دومًا عندما احتجت إلى نقود للذّهاب إلى السّينما عندما لم يسمح أبي بذلك.

ماتت جدّتي "صالحة" ومات اسمها معها. لم يُسمِّ أبي أو أعمامي إحدى بناتهم بالاسم "صالحة". قد يكون ذلك لأنهم اعتقدوا أنّ الاسم قديم جدًا ولا يفي بالغرض ولا يُعجب نساءهم.

أنا كذلك لم أدعُ ابنتي "صالحة" بل بحثت عن اسم حديث، سلس وسهل وفي نفس الوقت يحمل معانٍ جميلة، أسميتها "ميس".

كنت، وعلى سبيل الدّعابة، وخلال عملي كمدير للمدرسة، أقول للمعلّمات المقبلات على الولادة، إذا كان المولود بنتًا فسمّيها "صالحة". كانت المعلمات يضحكن ولا يأخذن كلامي على محمل الجد. لم تنفع وعودي ولا وعيدي، أصرّت المعلّمات على رأيهن. وهكذا اندثر اسم جدتي "صالحة" رحمها الله في عالم النّسيان.

من المحزن جدًا أنّ الأمر لم يقتصر على "الصّالحات" بل لحقته "الخديجات" و"السّارات" و"الخضراوات" و"النّظميّات" و"السّهامات" و"الآمنات" و"الأمينات" و"الصبحات" و"اللطفيات" و"الصّفيات" و"السَّنِيّات" و"الكريمات" و"السميحات" و"الباسمات"و "النجيّات" والكثير الكثير من الأسماء التي عشناها وتربيّنا عليها. هذه هي أسماء أمّهاتنا وجداتّنا وخالاتنا وعمّاتنا التي أصبحنا نخجل بها ولم نعُد نسمّي بناتنا بها.

قمت خلال الأسبوع الماضي بزيارة ميدانيّة لإحدى الحضانات في أحد الأحياء العربيّة وتعرفت على الطّالبات الصّغيرات، وسألتهنّ عن أسمائهن. ذكرت بعض الطّالبات الصّغيرات أسماءهن وكانت الأسماء كما يلي:

لارا، تولين، تاليا، إيمليا، نانسي، راما، لمار، لورين، لونا، ليان، لينا، لورا، رماس، ميرال، جوري، ريتال.

يعني، استغربت الأمر، ولكنني لم أعلّق على الموضوع وتجاهلته ولم أعره انتباهًا كثيرًا إلى أن وصلت إلى إحدى الطّالبات اللّطيفات التي جلست جانبًا تلعب بدميتها الصّغيرة، معتزلة باقي صديقاتها. تحدثت إلى الطّالبة بلطف ورقّة تليق بسنّها الصّغيرة وسألتها عن اسمها. أجابتني اسمي "وتين". خلت أنني لم أسمع الجواب جيّدًا فكررت السؤال مرّة أخرى، وهذه المرّة على مسمع من معلّمتها، فأعادت الجواب مرّة أخرى "اسمي وتين". "وتين، وتين" أعادت المعلّمة الإسم تأكيدًا لما قالته الطّالبة.

"ما معنى وتين؟" بادرتها بالسؤال فأجابت المعلّمة "أنّ الاسم وتين معناه هو الشّريان الرئيسي الذي يقوم بتغذية الجسم بالدّم النّقيّ الذي يخرج من القلب".

استغربت الجواب والمعنى فأنا لا أعرفه. وعندما عدت إلى البيت بحثت عن الاسم في القواميس فوجدت أنّ المعنى صحيح وأنّه موجود في القرآن الكريم في قوله تعالى: "ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" الحاقة\46.

صحيح أنّ الاسم جائز وليس هناك مانع من التّسميّة لكن الأفضل أن يُختار من الأسماء المعروفة البعيدة عن اللّبس، والتّعقيد، والإغراب، والشّذوذ.

بعد سنوات سوف تختفي الأسماء العربيّة من سجلات العرب وكتبهم، خاصّة أسماء البنات. بعد سنوات قليلة سوف تدخل إلى صف دراسي وسوف تسمع أسماء غريبة، حديثة، غير معهودة، منها الغربي والمعرّب والأجنبي وغيره من الأسماء.

قد يبدو الموضوع سخيفًا وغير مهم كما يظن البعض لكن بالعكس فهو موضوع خطير جدًا يتعلّق بهويّة الأمّة العربيّة والاسلاميّة، والتّراث العربي الأصيل. سوف ينسى أولادنا "خديجة" و"آمنة" و"عائشة" و"فاطمة" و"زينب"، وللأسف الآباء والأمّهات غافلون عن هذه القضيّة ومستمرّون في البحث عن أسماء مميّزة لأبنائهم وبناتهم لاجئين إلى معاجم أجنبيّة معتقدين أنّهم يبدعون ويبتكرون شخصيات جديدة حديثة لأولادهم.

نحن نسترجع أسماء آبائنا وأجدادنا لكننا بالواقع نسترجع ذاكرتنا المتجددة بواسطة تخليد أسماء أحبتنا حتى لا ندخل في مرحلة النسيان المستمر.

تذكروا أنّ علينا توخي الحذر في اختيار أسماء أولادنا وبناتنا كي لا نظلمهم ونجني عليهم ونؤثر على مستقبلهم. اسألوا أنفسكم إذا كنتم تحبون أسماءكم هل أنتم راضون عنها؟! هل كنتم تغيّرون أسماءكم لو منحوكم الفرصة؟! أنا مقتنع أنَّ بعضكم كان سيفعل ذلك.

تعالوا لا نبالغ في تسميّة أولادنا. لا تنسوا أنّ أسماءنا تصبح مع الزّمن جزءًا لا يتجزأ من شخصيّاتنا وحياتنا وكما قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "أنّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسّنوا أسماءكم".

هل نستطيع أن نذكر الأسماء بدون طرفة كما اعتدنا ذلك؟!

أراد رجل الاستعانة بأحدهم فسأله عن اسمه واسم أبيه فقال سرّاق بن ظالم فقال: تسرق أنت ويظلم أبوك فلم يستعن به. سأل رجل رجلًا ما اسمك فقال: بحر، قال أبو من؟ قال أبو الفيض. قال ابن من؟ قال ابن الفرات. قال ما ينبغى لصديقك أن يلقاك إلّا فى زورق.